قصص من السيرة

(٢)

الطفولة والرضاعة

بقلم

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان، عبدالعزيز بن عبدالرحمن

الطفولة والرضاعة. - الرياض.

٢٤ص، ١٧×٢٢سم. (سلسلة قصص من السيرة؛ ٢)

ردمك: ٨-٨٠-٤٠-٩٩٦٠

١- السيرة النبوية أ- العنوان ب- السلسلة

ديوي ٢٣٩,٢ ٢٢ / ٣٩٦٣

ردمك: ٨-٨٠-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٩٦٣ / ٢٢

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

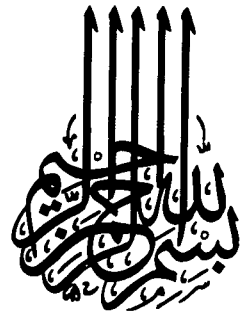
بسم الله الرحمن الرحيم

الطفولة والرضاعة

قال ﷺ لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا قُرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر».

والده عبدالله أصغر أبناء عبدالمطلب وأحبهم إليه، وأُمه آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة، أفضل امرأة في قريش أُسرة ومكانة، فوالدها سيّد بني زهرة نسبًا وشرفًا. تزوجها عبدالله بن عبدالمطلب وهو ابن ثلاثين سنة.

حفظه الله ورعاه منذ كان في الأصلاب، انطلق والده عبدالله مع أبيه عبدالمطلب ليزوجه آمنة، فمر وهو في الطريق بامرأة رأت في وجه عبدالله نورًا وإشراقًا، ووضاءة وصَبَاحة، فقالت له: يا فتى، هل لك أن تقع عليّ الآن وأُعطيك مائة من الإبل؟ فقال عبدالله:

أمّا الحـرام فالممـات دونه

والحـل لا حلّ فأسـتبينه

فكيف بالأمـر الذي تبغينه

يحمي الكريمُ عرضَه ودينه

ثم قال لها: أنا مع أبي عبدالمطلب، ولا أقدر أن أُفارقه ومضى مع والده عبدالمطلب، فتزوج السيدة آمنة، وأقام عندها ثلاثًا ثم انصرف.

ويرُوى أنه مرّ بتلك المرأة فدعته نفسُه إلى ما دعتهُ إليه فقال لها: هل لكِ فيما كُنْت أردتِ؟

فقالت: يا فتى، إني والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكن رأيت في وجهك نُورًا فأردت أن يكون فِيَّ، وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد.

يقول ابن كثير: إن هذه الصيانة لعبدالله بن عبدالمطلب ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ، فإنه كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، وفي الحديث المروي عنه: «ولُدتُ من نكاحٍ لا من سِفاح»[2].

وذاق ﷺ اليتم منذ الطفولة؛ فقد تُوفي والده عبدالله وهو في بطن أمه، حيث سافر في عير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض، فأقام بها حتى تُوفي ودفن هناك.

ولما حملت آمنة بالمصطفى ﷺ أتاها آت فقال لها: إنك قد حملت بسيّد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أُعيذه بالواحد، من شرِّ كل حاسد. ثم سمِّيه محمدًا.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٢) البداية والنهاية، ٣/ ٣٨١.

ورأت آمنة حين حملت به أنه خرج منها نورٌ رأت به قُصورَ بُصرى من أرض الشام.

وجاءت البشارة للأرض، وأطل خير البشرية يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل، وأرسلت أُمُّه آمنة إلى جده عبدالمطلب أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه، فأتى عبدالمطلب ونظر للوليد المبارك وشاهد أفضل طفل عرفته البشرية، وحدثته آمنة بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أُمرت به أن تُسميه.

وأخذ عبدالمطلب رسول ﷺ فدخل به الكعبة، وقام يدعو الله ويشكره على ما أعطاه، ثم عاد به إلى أمه فدفعه إليها وهو يقول:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان

وحدثت أم عثمان بن أبي العاص عن أُمها أنها شهدت ولادة آمنة، وحضرتها ليلة ولادتها بالمصطفى ﷺ، تقول: لقد حدث تلك الليلة نورٌ فما شيءٌ كُنت أنظر إليه من البيت إلا نَوّر، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو، حتى إني لأقول: لتقعنَّ عليَّ.

وكان أهل مكة يلتمسون لأطفالهم الرضاعة في البادية، ولهذا ظلت آمنة تفكر في المرضعة، وتبحث عن الحاضنة لطفلها المبارك ولوحيدها الزكي ﷺ.

وقدمت حليمةُ ابنة أبي ذؤيب السعدية إلى مكة تبحث عن طفل تأخذ أجر رضاعته، وأكرمها الله بخير البشرية عليه الصلاة والسلام.

ولنقرأ قول حليمة، ولنأخذ عنها قصة التشريف والتكريم:

حدَّثت أنها خرجت من بلدها معها زوجها الحارث بن عبدالعزى بن رفاعة وابن لها ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء.

قالت حليمة: كان خروجنا في سنة شهباء لم تبق لنا شيئًا، فخرجتُ على أتان لي قَمْراءَ، معنا شارف[1] لنا والله ما تَبِضُّ[2] بقطرة، وما ننامُ ليلناً أجمعَ من صبيّنا الذي معنا من بُكائه من الجُوع، ما في ثَدْيَيَّ ما يُغنيه، وما في شارفنا ما يُغذّيه، ولكنا كُنَّا نرجو الغيثَ والفرَجَ، فخرجتُ على أتاني تلك، فلقد أدَمتُ بالرَكْبِ[3] حتى شقَّ

(١) الشارف: الناقة المسنة.

(٢) ما تبض: ما ترشح بشيء.

(٣) أدمت بالركب، أي أطلتُ عليهم المسافة، تُريد تأخر الركب بسببها.

ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا[1]، حتى قدمنا مكة نلتمسُ الرُّضَعَاء، فما منّا امرأةٌ إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ فتأبَاهُ، إذا قيلَ لها: إنهُ يتيمٌ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصَّبيِّ، فكنا نقول: يتيم! وما عسَى أن تصنَع أُمُّهُ وجدُّهُ؟ فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأةٌ قدمت معيَ إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما أجمعنا الانطلاقَ قلتُ لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذْ رضيعًا، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه.

قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت حليمة: فذهبتُ إليه فأخذتُه، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجِد غيرَهُ، قالت: فلما أخذته رجعتُ به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كُنا ننامُ معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل فحلبَ منها ما شرب، وشربتُ معه حتى انتهينا ريّاً وشبعاً، فبتنا بخير ليلةٍ.

---

(١) العجف: الهزال.

قالت حليمة: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي، والله يا حليمة، لقد أخذْت نسمةً مُباركةً، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثُم خرَجنا وركبتُ (أنا) أتاني وحملتهُ عليها معي، فوالله لقطعتُ بالرّكب، ما يقدر عليها شيءٌ من حُمرهم، حتى إنّ صواحبي ليقُلنَ لي: يا ابنة أبي ذُؤيبٍ، ويحك! اربعي[1] علينا، أليست هذه أتانك التي كُنت خرجت عليها؟ فأقولَ لهُنَّ: بلى والله إنها لهي هي، فيقلنَ: والله إنَّ لَها لشأنًا.

قالت: ثُمّ قدمنَا منازلنَا من بلاد بني سعد، وما أعلمُ أرضًا من أرض الله أجدبَ منها، فَكانت غنمي تَرُوحُ علَيَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبَّنًا، فنحلبُ ونشربُ، وما يحلب إنسانٌ قطرةَ لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكُم! اسرحُوا حيثُ يسرحُ راعي بنت أبي ذُؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبضُّ بقطرة لبن، وتروحُ غنمي شباعًا لُبَّنًا، فلم نزل نتعرف منَ الله الزيادةَ والخير حتى مضت سنتاهُ، وفصلتهُ، وكان يشبُّ شبابًا لا يشُّبهُ الغلمانُ، فلم يبلُغ سنتيه حتى كان غُلامًا جفرًا[2].

---

(١) اربعي: أقيمي وانتظري.

(٢) الجفر: الغليظ الشديد.

قالت: فقدمنا به على أُمِّه، ونحنُ أحرصُ شيء على مُكثه فينا؛ لما كُنَّا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركتِ بُنيّ عندي حتى يغلُظ فإني أخشَى عليه وباء مكةَ، قالت: فلم نزل بها حتى رَدَّته معنا.

وروى الطبري في تاريخه عن شداد بن أوس قال: بينا نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ إذ أقبل شيخ من بني عامر، وهو مدرةُ قومه وسيدُهم؛ من شيخ كبير يتوكأ على عصا، فمثلَ بين يدي النبي ﷺ قائمًا، ونسبه إلى جدّه.

فقال: يا بن عبدالمطلب، إني أنبئتُ أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس، أرسلك بما أرسل به إبراهيم، وموسى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء، ألا وإنك فوِّهت بعظيم، وإنما كانت الأنبياءُ والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل، وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان، فما لك وللنبوة؟ ولكن لكل قول حقيقة، فأنبئني بحقيقة قولك، وبدء شأنك.

قال الراوي: فأُعجب النبي ﷺ بمسألته، ثم قال: يا أخا بني عامر، إن لهذا الحديث الذي تسألني عنه نبأً ومجلسًا، فاجلس.

فثنى العامري رجليه، ثم برك كما يبرك البعير.

فاستقبله النبي ﷺ بالحديث، فقال: يا أخا بني عامر، إن حقيقة قولي وبدء شأني أني دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشرى أخي عيسى ابن مريم، وإني كنتُ بِكْر أمي، وإنها حملت بي كأثقل ما تحملُ، وجعلَتْ تشتكي إلى صواحبها ثقل ما تجدُ. ثم إن أمي رأت في المنام أن الذي في بطنها نورٌ.

قالت أمي، فجعلتُ أُتْبِع بَصَري النور، والنور يسبق بصري، حتى أضاءت لي مشارق الأرض ومغاربها، ثم إنها ولدتني فنشأت، فلما أن نشأتُ بُغِّضت إليَّ أوثانُ قريش، وبُغِّض إليَّ الشعر.

وكنت مسترضعًا في بني ليث بن بكر، فبينا أنا ذات يوم مُنتَبذٌ من أهلي في بطن وادٍ من أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلَّة[1]، إذ أتانا رهطٌ ثلاثة (ملائكة)، معهم طستٌ من ذهب مُلئ ثلجًا، فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هُرّابًا حتى انتهوا إلى شفير الوادي، ثم أقبلوا على الرَّهط فقالوا: ما أربُكم إلى هذا الغلام، فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش، وهو مسترضعٌ فينا؛ إنه غلام يتيم

(١) الجِلَّة: البَعَرة اليابسة.

ليس له أب، فماذا يردُّ عليكم قتلُه، وماذا تصيبون من ذلك! ولكن إن كنتم لابدّ قاتليه، فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلُوه، ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم.

فلما رأى الصبيان القوم (أي الملائكة) لا يُحيرون إليهم جوابًا، انطلقوا هُرابًا مسرعين إلى الحي، يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم.

فعمد أحدُهم فأضجعني على الأرض إضجاعًا لطيفًا، ثم شقّ ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، وأنا أنظر إليه، فلم أجد لذلك مسًّا، ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فأنْعَم غسلَها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه: تنح، فنحّاه عني، ثم أدخل يده في جوفي، فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدَعه، ثم أخرج منه مُضغَةً سوداءَ، فرمى بها ثم قال بيده يمنةً منه؛ كأنه يتناول شيئًا.

فإذا أنا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه، فختم به قلبي فامتلأ نورًا، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعادهُ مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرًا، ثم قال الثالث لصاحبه: تنحّ عني، فأمَرَّ يده

ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فالتأم ذلك الشق بإذن الله، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضًا لطيفًا، ثم قال للأول الذي شقّ بطني: زنه بعشرة من أمته، فوزنوني بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمّته، فوزنوني بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنوني بهم فرجحتهم. فقال: دعوهُ، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم.

قال ﷺ: ثم ضموني إلى صُدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني، ثم قالوا: يا حبيب، لم تُرعْ؛ إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرّت عيناك.

قال ﷺ: فبينا نحن كذلك إذ أنا بالحي قد جاؤوا بحذافيرهم، وإذا أمي (حليمة السعدية) أمام الحي تهتف بأعلى صوتها وتقول: يا ضعيفاه! قال رسول الله: فانكبوا (أي الملائكة) عليّ فقبّلوا رأسي وما بين عيني، فقالوا: حبذا أنت من ضعيف!.

ثم قالت ظِئري (مُرضعتي حليمة السعدية): يا وحيداه! فانكبوا عليّ فضموني إلى صدورهم وقبّلوا رأسي وما بين عينيَّ، ثم قالوا:

حبذا أنت من وحيد وما أنت بوحيد! إنّ الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض.

ثم قالت ظئري: يا يتيماه، استُضْعِفْتَ من بين أصحابك فقتلت لضعفك، فانكبوا (أي الملائكة) عليّ فضموني إلى صدورهم، وقبّلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا: حبّذا أنت من يتيم، ما أكرمكَ على الله! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير!

قال ﷺ: فوصلوا بي إلى شفير الوادي، فلما بصرت بي أمي (حليمة السعدية) قالت: يا بُني ألا أراك حيّا بعدُ! فجاءت حتى انكبّت عليّ وضمتني إلى صدرها.

يقول ﷺ: فوالذي نفسي بيده، إني لفي حجرها وقد ضمتني إليها، وإن يدي في يد بعضهم، فجعلتُ ألتفتُ إليهم وظننت أن القوم يبصرونهم، فإذا هم لا يبصرونهم.

يقول بعض القوم: إنّ هذا الغلام قد أصابه لمم أو طائفٌ من الجن، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويُداويه.

يقول عليه الصلاة والسلام: فقلت: يا هذا، ما بي شيء مما تذكر، إن آرائي سليمة وفؤادي صحيح، ليس بي قَلَبة[1].

فقال أبي -وهو زوج (حليمة السعدية)-: ألا ترون كلامه كلام صحيح! إني لأرجو ألا يكون بابني بأسٌ، فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن.

قال عليه الصلاة والسلام: فاحتملوني حتى ذهبوا إلى الكاهن، فلما قصُّوا عليه قصّتي قال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام، فإنه أعلم بأمره منكم، فسألني، فاقتصصت عليه أمري ما بين أوّله وآخره، فلما سمع قولي وثب إليّ فضمني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب، يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه، فواللات والعزّى لئن تركتموه وأدرك ليُبدلنّ دينكُم، وليُسفهنَّ عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفنَّ أمركم، وليأتينكُم بدين لم تسمعوا بمثله قطّ!

(١) ليس بي قَلَبة: أي ليس بي شيء، وأصله من القلاب، وهو داء يأخذ الإبل في رؤسها فيقلبها إلى فوق.

فعمدت ظئري (حليمة السعدية) فانتزعتني من حجره وقالت: لأنت أعتهُ وأجن من ابني هذا! فلو علمتُ أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به، فاطلب لنفسك من يقتُلك، فإنا غير قاتلي هذا الغلام.

قال عليه الصلاة والسلام: ثم احتملوني فأدوني إلى أهلي فاصبحت مُفْزَّعًا مما فُعل بي، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى مُنتهى عانتي كأنه الشّراك؛ فذلك حقيقةُ قولي وبدءُ شأني يا أخا بني عامر.

فقال العامري: أشهدُ بالله الذي لا إله غيره أنّ أمرك حق، فأنبئني بأشياء أسألك عنها!

قال عليه الصلاة والسلام: سل عما شئت، وعما بدا لك.

قال العامري: أخبرني يا بن عبدالمطلب، ما يزيدُ في العلم؟

قال ﷺ: التعلّم.

قال العامري: فأخبرني ما يدلّ على العلم؟

قال النبي ﷺ: السؤال.

قال العامري: فأخبرني ماذا يزيدُ في الشرّ؟

قال ﷺ : التمادي .

قال العامري : فأخبرني هل ينفع البرُّ بعد الفجور؟

قال ﷺ : نعم، التوبةُ تغسل الحوبةَ، والحسنات يُذهبن السيئات، وإذا ذكر العبدُ ربَّه عند الرّخاء أغاثَه عند البلاء .

قال العامري : وكيف ذلك يا بن عبدالمطلب؟

قال ﷺ : ذلك بأن الله يقول : لا وعزّتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين، ولا أجمع له أبدًا خوفين، إن هو خافني في الدنيا أمنني يوم أجمعُ فيه عبادي عندي في حظيرة الفردوس، فيدومُ له أمنُه، ولا أمحقُه فيمن أمحق، وإن هو أمنني في الدُّنيا خافني يوم أجمع فيه عبادي لميقات يوم معلوم، فيدوم له خوفه .

قال العامري : يا بن عبدالمطلب، أخبرني إلام تدعو؟

قال ﷺ : أدعو إلى عبادة الله وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأن تخلَع الأنداد، وتكفر باللات والعزّى، وتقرَّ بما جاء من الله من كتاب أو رسول، وتصلّي الصلوات الخمس بحقائقهن، وتصوم شهرًا من

السنة، وتؤدي زكاة مالك، يطهرك الله بها ويُطيب لك مالك، وتحجّ البيت إذا وجدت إليه سبيلاً، وتغتسل من الجنابة، وتؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، وبالجنة والنار.

قال العامري: يا بن عبدالمطلب، فإذا فعلتُ ذلك فما لي؟

قال النبي ﷺ: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وذلكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ**﴾[1].

قال العامري: يا بن عبدالمطلب، هل مع هذا من الدنيا شيء؟ فإنه يعجبني الوطاءة[2] من العيش!

قال النبي ﷺ: نعم النصرُ والتمكُّن في البلاد.

قال: فأجاب وأناب.

هذا وعاش رسول الله ﷺ طفولته مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبدالمطلب في رعاية الله وحفظه.

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٦.

(٢) الوطاءة: السهولة واللين.

وشَبَّ البدر، ونما الأفق، وأنبته الله نباتًا حسنًا، ولما بلغ ﷺ ست سنوات توفيت أمه آمنة بنت وهب، فذاق مرارة فَقْد الأم، وبقي عند جده عبدالمطلب بن هاشم، وأحبه جده وفَضَّلَهُ، فكان يوضع لعبدالمطلب الفراش في ظل الكعبة، ويجلس بنوه حول ذلك الفراش حتى يخرج عبدالمطلب إليهم لا يجلس عليه أحدٌ منهم إجلالاً له، ويأتي رسول الله ﷺ وهو غلام جَفْرٌ ويجلس على ذلك الفراش فيأخذه أعمامه ليؤخروه، فيقول لهم عبدالمطلب إذا رأى ذلك منهم: دعو ابني فوالله إن له لشأنًا، ثم يُجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

ومضت الأيام ولما بلغ ﷺ ثماني سنوات توفي جده عبدالمطلب وأوصى به إلى عمه أبي طالب؛ وذلك لأن عبدالله والد الرسول ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم فأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية.

ورق أبو طالب وعطف على الطفل المبارك ﷺ فكان يرعاه ويحوطه بعنايته، وأحبه رسول الله ﷺ ولازمه، وفي ذات عام همّ

أبوطالب بالخروج في ركب إلى الشام للمتاجرة، وبينما هو عازم على الخروج إذ رآه الرسول فتعلق به، فقال أبو طالب: والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا. وكان الرسول ﷺ إذ ذاك ابن تسع سنين فخرج به معه.

ومضى الركب إلى مقصده، فلما نزل مدينة بُصْرَى من أرض الشام، وكان بها راهب يقال له بَحيرَى في صومعة له، وكان هذا الراهب له علم بالنصرانية ولا يكلمَ أحدًا ولا يتعرض للركب الذي كثيرًا ما يمر به، إلا أنه في هذه المرة خرج على المألوف، فقد صنع للركب طعامًا استقبلهم به، وذلك أنه رأى وهو في صومعته غمامة تُظلل رسول الله ﷺ؛ ولهذا أرسل إلى الركب وقال لهم: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش، فأنا أُحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعَبْدكم وحُرُّكم.

فقال له رجل منهم: والله يا بَحيرَى، إن لك لشأنًا اليوم فما كنت تصنعُ هذا بنا، وقد كنا نُمرّ بك كثيرًا، فما شأنُكَ اليوم؟

قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقولُ، ولكنكم ضيفٌ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنعُ لكم طعامًا فتأكلوا منه كلكم.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ﷺ من القوم لحداثة سنّه في رحَالِ القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى في القوم ولم يرَ الصفة التي يعرفُ ويجدُ عنده في أيٍّ منهم.

قال: يا معشر قُريش، لا يتخلفنَّ أحدٌ منكم عن طعامي.

قالوا له: يا بَحيرى، ما تخلَّف عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيكَ إلا غُلامٌ وهو أحدثُ القوم سنّاً بقي عند الرِّحال.

فقال: لا تفعلوا، ادعُوه فليحضُر هذا الطعام معكم.

فقال رجل من قُريش مع القوم: واللاتِ والعُزى إن كان للؤمٌ بنا أن يتخلَّف ابنُ عبدالله بن عبدالمطلب عن طعَامٍ من بيننا، ثم قامَ إليه فاحتضنه، وأجلسهُ مع القومِ.

فلما رآه بحيرى جعل يلحظهُ لحظاً شديداً، وينظرُ إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغَ القوم من طعامهم وتفرقوا، قامَ إليه بحيرى، فقال له: يا غُلامُ، أسألك بحق اللات والعُزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أنَّ رسول الله ﷺ قال

له: لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بُغضهُما.

فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه.

فقال له: سلني عما بدا لك، فجعلَ يسأله عن أشياء من حاله في نومه، وهيئته، وأموره، فجعل رسولُ الله يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغَ أقبل على عمه أبي طالب فقالَ لهُ: ما هذا الغلامُ منك؟

قال: ابني.

قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً.

قال: فإنه ابنُ أخي.

قال: فما فعل أبوه؟

قال: ماتَ وأمه حُبلى به.

قال: صدقتَ فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغنَّهُ شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم.

ورجع به عمه أبو طالب مسرعًا إلى مكة حين فرغ من تجارته بالشام، واستمر يرعاه في كل مراحل عمره، حتى توفي أبو طالب في السنة التي توفيت فيها السيدة خديجة بنت خويلد زوجة المصطفى ﷺ، وسمي ذلك العام بعام الحزن.

هذه ملامح من طفولة المصطفى ﷺ، نرى من خلالها العناية الإلهية بسيد البشر منذ كان في الأصلاب، والرعاية الربانية تحوطه في كل مرحلة من مراحل عمره، ونشاهد المعجزات تتوالى بين الحين والآخر.

جعلنا الله من أتباعه، ورزقنا شفاعته يوم نلقاه.

* * *